المحاضرة الثانية

موقف المستشرقين من الادب الاندلسي

أ. م.د.معتصم كريم ومحيسن

وبعد أن تفحصوا هذه الآثار وصلوا إلى مقولة فحواها -على حد قول الإسباني خوان غويتسولو- "إن استحضار الماضي المجيد الذي عرفه العالم الإسلامي في الأندلس، يدفع العرب إلى التفجع على انحطاطهم الحالي وعجزهم عن مسايرة التقدم الأوروبي". وقد انقسم المستشرقون في بحثهم للموروث العربي في الأندلس إلى قسمين: قسم متعصب ضد العرب، يحاول محو وجودهم الثقافي في إسبانيا، ويسعى إلى إثبات أن سبب تقدمهم هو مجاورتهم الإسبان في قشتالة وغيرها، فالنبوغ العربي لا يمكن أن يكون إلا بالاختلاط مع الإسبان، فابن القوطية مثلاً في نظرهم مرتبط بالفكر الهلّيني، وابن حزم في "طوق الحمامة" لا يمتلك القدرة على صنعها إلا بتأثير من الروح الإسبانية، لأن روحه العربية عاجزة عن إنشاء مثل هذه الأحاسيس المرهفة عن الحب وجزيئاته، والتي لا تتسق مع جلافة العرب، ومن أشهر المستشرقين الذين انحازوا إلى مثل هذه الأحكام، كوندي، وسافيدرا، وكلاوديو سانشين في كتابه "إسبانيا الإسلامية والغرب" وغيرهم.

أما القسم الثاني فيمكن وصفه بالمعتدل، ذلك أن بعض المستشرقين قد تخلصوا من عقدة العرق والدين، فكانوا معتدلين في أحكامهم، أمثال إميليوا جومث، ورامون مايرتا، وأنطونيو غالا، إلا أن هؤلاء لم يكونوا منصفين في بعض الأحيان إلى حد كبير، لكنهم مع ذلك تكلموا عن فضل العرب في تشييد حضارة بلاد الإسبان، وصنع تراثها الفكري والمعرفي.

واهتمت طائفة منهم بدراسة التراث العربي إبان حكم العرب للأندلس، أمثال "هندريك فايرس" الذي جعل أطروحته للدكتوراه متخصصة في جمع أشعار ابن زيدون، حيث عمل على تحقيقها ونشرها ودراستها، من ثم تُرجمت إلى لغات أخرى كاللاتينية، وكان يبذل جهده في تدريسها لطلبته، مما أسهم في نشرها بينهم، فخرج منهم من يهتم بها وبدراستها، أمثال المستشرق المعروف "دوزي" الذي شغل نفسه بشعر العرب وتاريخهم في الأندلس، فكتب عن تاريخ بني عباد في إشبيلية كتاباً أسماه "أخبار بني عباد عند الكتّاب العرب"، ثم درس كتاب "الذخيرة" لابن بسام، وعالج من خلال تلك الدراسة تاريخ العرب والمسلمين وحضارتهم وتراثهم الثقافي والأدبي في الأندلس.

ولعل المستشرق الهولندي "ميخائيل خويه" -تلميذ دوزي- من أكثر المستشرقين اهتماماً بالتراث الأندلسي، فقد عمد إلى العديد من المصادر والمخطوطات العربية فأخرجها إلى حيز الوجود بلغة العصر، ككتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للشريف الإدريسي، ثم إنه أعاد تحقيق "رحلة ابن جبير". أما "خوان خمينيث" الحائز على جائزة نوبل في الآداب سنة 1956، فقد اهتم بالشعر الأندلسي، وله نظرية أساسها أن الشعر العربي الأندلسي والشعر الصوفي الأندلسي هما أساس الرمزية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن بعض المستشرقين درس ألوان الشعر العربي في الأندلس على اختلافها، لا سيما الموشحات والزجل، فقد أحدثت الموشحات أثراً كبيراً في الشعر الفرنسي، وظهر نتيجة لذلك ما يسمى شعر "التروبادور"، وحاكى شعراء إيطاليا شعر المدائح الدينية على الطريقة الأندلسية.

أما في مجال النثر فربما أن قصة "حي بن يقظان" لابن طفيل خير مثال على عناية المستشرقين والدارسين الغربيين بالتراث النثري الأندلسي، ذلك أنهم درسوها دراسة فاحصة، وربطوا رؤيتها بفكرة القصة الأوربية الشهيرة "روبنسون كروزو" لـ"دانيال ديفو".

أما "آسين بلاثيوس" فقد كان له دور كبير في التعريف بتراث العرب في الأندلس، وهو صاحب دراسة مهمة حول التصوف في الفكر الأندلسي، جعلها في كتاب أسماه "الإسلام في أرض مسيحية- دراسة للصوفية من خلال أعمال ابن عربي"، فضلاً عن دراساته الأخرى التي أعادت اكتشاف التراث الأندلسي، وغيّرت الكثير من المفاهيم الخاطئة، واعترفت بفضل العرب في تطوير الفكر الإسباني، وإسهامهم في تنمية الجوانب الحضارية في إسبانيا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن المكتبات والمراكز العلمية في دول الغرب كإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وهولندا وبريطانيا وغيرها تعج بالمخطوطات الأدبية والفكرية والتاريخية والعلمية التي صنفها عرب الأندلس، وهي مخطوطات ذات قيمة كبيرة، يسعى علماء ومثقفو الغرب إلى تحقيقها ونشرها ودراستها.